العلامـة بين إحالاتهـا التّقريرية وأبعادهـا التّأويليـة

الدكتور: أحمـــد طيبـــي .
قسم اللّغـة العربيـــة وآدابهـــا
جامعة الدكتور مولاي الطاهر ، سعيـــدة .

إذا كانت العلامة ، في تعريفها البسيط الذي تبنته الفلسفات القديمة والحديثة على السّواء ، هي كلّ شيءٍ أوْ حدثٍ يحيل على شيءٍ ما أوْ حدثٍ ما ، فهذا يعني أنّها الأداة والوسيلة الرّاقية التي اتّخذها الإنسان ، الكائن الرّمزي (1) الوحيد في هذا الكون ، لصياغة تجرته الإنسانية صياغةً متطوّرةً تتعدّى المعطى المادّي للأشياء وتتجاوز إكراهات حضوره الفعلي في الزّمان والمكان .(2)

لقد مكّنه اكتشافه العلامي التّرميزي الجديد هذا من التّعامل مع عالمٍ آخر يختلف جذريّاً عن عالمه المادّي المعهود الذي ألفه وعاش ردحاً من الزّمن داخل بوتقته الجامدة المتعددة والمتداخلة التي لا تستطيع مجهودات الإنسان الإدراكية استيعابها والإحاطة بها في كلّ نسخها من خلال تجليها المباشر ، عالمٌ نشِطٌ يعجّ بالحركة ، يكره التّوقف عند نقطةٍ بعينها . فبفضل هذا السلوك العلامي التّرميزي أصبح بمقدور الإنسان أن يستدعي الموجودات والكائنات والأشياء الغائرة في الزّمان والمكان ويستحضرها أمامه من خلال علامات تحل محلها فتنوب عنها وتعوضها وتختصرها في نماذج وبنيات عامة ، ذلك أنه "كلما ازداد النشاط الرمزي تراجع الواقع "كما يقول كاسيرر (3) ، بل مكّنه هذا الاختراع المهمّ في حياته من الإشارة إلى عوالم خفيّة ترتبط بالخيال أكثر من ارتباطها بالواقع الذي يعرفه ، حتى أنّها أضحت مع تداول الأيام جزءاً من ثقافته التي تؤثّث عالمه.

إنّ سيطرة الإنسان وبسطه سلطانه على الوجود المادّي الجافّ الذي لا يحيل سوى على نفسه ، بل وجعله التّجربة الإنسانية في كلّيتها تحضر أمامه ، لم يكن ليتحقّق له بهذه

السّهولة لولا صوغه لهذا الزّخم التّجريدي المتكوّن من العلامات و الرّموز ، وبواسطته تمكّن في الأخير من التّحليق بعيداً عن إكراهات الواقع وإرغامات الطبيعة كلّها بمختلف تجلّياتها وأشكالها .

فليست إذنْ حالة الوعي هذه التي بلغها الإنسان في صياغتة للسّلوك الإنساني عامّة بكائناته وأشيائه وأهوائه ورغباته وقناعاته وأحلامه وطقوسه ومعتقدات وتجاربه قادتْه في النّهاية ، عنْ طريق التّرميز واستخدام العلامات ، إلى بناء عوالم من المفاهيم المتحرِّرة التي لا تأخذ من الوجود المادّي والتّجارب المباشرة اللّصيقة بالزّمان والمكان غير المجرّد والعامّ المِطْواع القابل للتّكيُّف والتّشكُّل المتجدّد مع كلّ واقعةٍ جديدة ، سوى ردّة فعل عنْ شعورٍ بالاختناق وإحساس بالضّيق والضّغط تجاه طبيعةٍ هوجاء صاخبةٍ لا ترحم يريد أن ينفصل عنها ويتملّص من عنفها ويدفع بذاته إلى الارتماء في أحضان الأشكال الرّمزية . (4)

إنّ ذوبان الإنسان وتماهيه في الأشكال الرّمزية ، بهذه الكيفية ، لم يكن إجراءً مجانياً مجرّداً من أيِّ معنى ، فالعلامات بالنّسبة له هي أداته المركزية في إنتاج الفكر وليست فقط أداة لتبليغه كما جاء عن " بيوسنس " في تعريفة للعلامة عندما وصفها بأنّها (أداة يستخدمها الإنسان من أجل تبليغ حالة وعي إلى كائن إنساني آخر) ، فلا يمكنه أن يعيَ ويفكر مفصولا عن العلامات ، فوجود المعنى رهين بوجود العلامات ، والعلامات ، في الأخير ، هي وحدها أداته إلى إنتاج الدلالات وتداولها واستهلاكها . يقول إيكو : « فلا يمكن الحديث عن العلامة إلا باعتبارها أداتنا الرئيسية، إن لم تكن الوحيدة لتنظيم التجربة الإنسانية » (5)

ومن هذه الزاوية يجب التعامل مع " العلامة " في ارتباطها بالممارسة الإنسانية وارتباط الممارسة الإنسانية بها ، فوجود هذا لوجود ذاك ، وإنّ أيّ بحث في التّجليات الممكنة للمعنى التي تفضي بها العلامات هو بحث ، في الواقع ، في أساس النّشاط الإنساني .(6)

ولما كانت السميائيات نشاطاً معرفياً يسائل المعنى ويبحث شروط إنتاجه وأشكال تجليه وكيفية تداوله ، فإنّ مجالها التّجربة الإنسانية ، فهي مُنطلقها وهدفها في الآن ذاته ، إنها بحث في السّلوك الإنساني بوصفه نشاطا دالاً . فكلّ « مظاهر اليومي للإنسان تشكّل موضوعا للسيميائيات ... فالضحك والبكاء والفرح واللباس وطريقة استقبال الضيوف

وإشارات المرور والطقوس الاجتماعية والأشياء التي نتداولها فيما بيننا ، وكذلك النصوص الأدبية والأعمال الفنية ، كلها علامات [دالة تنتمي إلى التجربة الإنسانية] نستند إليها في التواصل مع محيطنا » .(7) فالدّلالة على هذا الحال " مفهوم مركزي ينتظم حوله النّشاط السّميائي في مجمله "كما يقول جريماص .(8)

والحاصل أنّ فعل إنتاج الدّلالة ليس معطى جاهزا يوجد في الأشياء خارج الفعل الإنساني ، وإنّما تقتضي كل واقعة ، في سبيل خوضها غمار توليد المعنى ، وجود مسار تدليلي يقود بعضه إلى بعض ضمن سلسلة من الإحالات داخل هيكل العلامة ذاتها ، تشكله عناصرها الداخلية الثّلاثة التي توكل لها مهمّة محافظتها على وجود العلامة واستمراريتها دائماً ؛ إنّ هذا المسار التّدليلي هو ذات ما يسميه تشارلز ساندرس بيرس Charles Sanders Peirce (1842ـ 1914م) بـ (السميوزيس Semiosis) التي يريد بها تلك « السيرورة التي يشتغل من خلالها شيء ما كعلامة » .(9) أمّا العناصر الرّئيسة المشكّلة للهيكل الدّاخلي للعلامة التي يجب ألا يغيب أحدها وإلاّ أدّى ذلك إلى تخريب بنائها وكبحها عن إنتاج الدلالة هي كما يلي : (10)

1- ماثول (représentation) : أداة للتّمثيل تنوب عن شيء ما وهذا الشيء هو موضوعها ، يتعلق الأمر بمتوالية صوتية ، في حالة اللّسان الطّبيعي ، يستعان بها كتمثيل رمزي متعارف عليه عند مجموعة لغوية بعينها من أجل استحضار عالم مادي غائب في الزّمان والمكان ، وقد يتعلّق بمادة أخرى للتّمثيل . ومن ثم فالماثول ، بهذا الاعتبار ، هو نقطة الانطلاق فى عملية السميوزيس التّدليلية .

2- موضوع (objet) : شيء ما واقعي أو مُتخيَّل موضوع للتّمثيل يُستند إليه في إنتاج الصور الذّهنية ، يشكل أساس المعرفة ، يقوم (الماثول) بالكشف عنه عبر الإحالة إليه.

3- مُؤوِّل (Interprétant) : العالم المفهومي الفكري التجريدي الذي يُستغنى بواسطته عن الوقائع ويستعاض عنها بنموذج تُحيّن عبره كل التجارب المشابهة ، يشتغل كأداة واصلة بين " الموضوع " و " الماثول " مبرِّرة للعلاقة الرّابطة بينهما ، يُعتمد عليه ، بصفته أداة التّوسط الإلزامي ، في إحالة " الماثول " إلى " الموضوع " ضمن السّيرورة التي سمّاها بيرس " السيميوزيس " ، فهذا هو نوع العمل المنوط بالمؤول وهذه هي وظيفته

داخل العلامة . وبإمكان الشّكل التّالي أن يمثل للتّرابط الوثيق الذي يجمع بين العناصر الثّلاثة المشكّلة لكنه العلامـة :

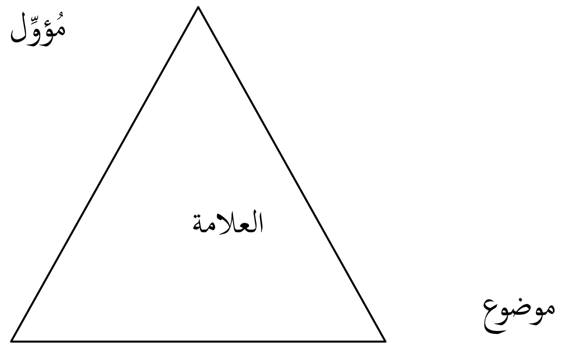

وعليه ، فإنّ الفعل التّدليلي (السميوزيس) ، كما هو موضّح من خلال الشّكل أعلاه ، فعلٌ ثلاثي الأبعاد قائمٌ على حضور مكوّنات العلامة ثلاثتها (ماثول وموضوع ومؤول) بحيث إنّ غياب أحدها يؤدي دون شكّ إلى تحجيم إحالتها الكاملة الصّحيحة وحينها لا يمكن الحديث عن تجربة فكرية أبـداً .

لذلك كانت المعرفة النّاتجة عن الإحالة الثّنائية المباشرة في مثل إحالة (ماثول على موضوع) معرفةً مُفرغةً من أيّ فكر ، بل هي معرفة قاصرة كونها غير قادرة على التّحول إلى معرفة عامة ، وبالتّالي فهي قابلةٌ للزوال في أيّ لحظةٍ تنتفي فيها الأسباب التي دفعت بها إلى الوجـود. في مقابـل ذلك ، وعندمـا تَسْتكمل الإحالة عناصرها الثّلاثة ، نكون أمام حالة تجريد لواقعة لباسها الفكر والمعرفة قابلة للتّعميم بتجاوزها النّسخة المادية ، إلى استيعابها كقوانين من خلال نموذج عام تُستحضَر عبره كل الوقائع المشابهة كيفما كانتْ الحالات التي تحضر بها إلى الواقع .

وبذلك يتّضح أن (السميوزيس) ، بما هي سيرورة تأويلية ، تمثّل جوهر السميوطيقا كما تصوّرها بيرس على الأقلّ ، ذلك أنّ الذات الإنسانية ، وفي محاولتها إدراك نفسها وإدراك العالم المحيط بها ، تحتاج إلى سيرورة تدليلية (السيموزيس) أو (وظيفة سميائية) كما يسميها يالمسليف (11)، تحول بها الوقائع الموجوده في العالم الخارجي إلى أشكال مضمونية ونسخ ثقافية بديلة ذات طابع رمزي سميائي في الأساس . ومنه فإنّ إنتاج الدّلالة ، في

منظور بيرس ، لا يمكن تصوره خارج إطار المسار التّدليلي للسميوزيس القائم على إلزامية وجود علاقة التّرابط بين أداة التّمثيل وبين موضوعها في الخارج عبر أداة التّأويل التي تشتغل من خلالها العلامة كعلامة ، غير أنّ العلامة هنا ليستْ منتهية الدّلالة ، فالدّلالة المنتجَة ، بالنّسبة لشخصٍ ما ، عبر مُؤوِّل هي بدورها علامة بالنّسبة لشخصٍ آخر ، بمعنى أنها تخلق في مُخيِّلته علامةً موازية ، أو ربما علامة أرقى من الأولى ، وتشكّل علامةً جديدةً بالنّسبة لشخصٍ ثالثٍ وهكذا تستمرّ هذه السيرورة مُعبِّرة عن عملية تأويلية غنيّة قد لا يكون لها نهاية تحدها . فالمؤول ، بهذا الاعتبار وكما يعتقده بيرس ، لا يمثّل عنصرا مشكّلا للبناء الداخلي للعلامة فحسب ، بل إضافة إلى ذلك هو علامة أخرى ، تحتاج إلي تمثيل آخر يكون سببا في إيجاد علامة أخرى توجِد بدورها مؤولا آخر، ومن شأن هذا الانتقال من مؤول إلى أخر داخل نسيج السميوزيس اللامتناهية ، سواء خصّ ذلك مستوى التقرير أو كان على مستوى التأويل ، أن يكسب العلامة معرفة خاصة أرقى من تلك التى مثّلت نقطة البداية بالنسبة لهذه السيرورة التّدليلية .

ويجب الاحتراس ، هنا ، من الخلط بين المؤوِّل والتّأويل ، فالمؤوِّل وإنْ كان مرتبطاً بالتأويل ، إلاّ أنّه لا يمثّل سوى نقطة بدايته ومنطلقه إلى عالمٍ منفتحٍ على كثير من الاحتمالات في محاولة منه إلى الإمساك بخيوط الدّلالة والدفع بها إلى الاستقرار والتّوقف عند نقطة أخيرة هي خاتمة لسيرورة تأويلية يتكفل بها مؤوِّل ثالث يُطلق عليه المؤوِّل المنطقى النّهائى . والمؤوِّل (interpretant) ، على عكس فعل التّأويل (interpretation) ، لا يحتاج ذات مؤولة (interpreter) تقوم بالتأويل ، ولا يقتضي سياقا خاصا تحيَّن وتحقق بواسطته القيم المجردة .

وبالرّغم من أنّ عملية التّمثيل العلامي تستند إلى الوقائع الموجوده في العالم الخارجي كونها أصل الإحالة ومرتكزها ، إلاّ أنّ الملاحظ عليها أنّها غير قادرة أن تعكس كلّ جوانب الواقعة ولا تستطيع ، من خلال إحالة واحدة ، أن تستحضر كل المظاهر المعرفية التي تتوفّرعليها الواقعة . فالعلامة ، بهذا الشّكل ، لا تنوب عن موضوعها وتستوعبه من كل الجوانب ، وبالتّالي يبقى تمثيلها لواقعة ما تمثيل جزئي . (12) ولعل ذلك ما يجعل من موضوع التّمثيل ، بحكم نوع الممارسة الإنسانية ، كيانا يكبر العلامة و يتجاوزها ، بل إن

العلامة ، في محاولاتها اليائسة لاستيعابه بجميع جزئياته ، لا تقوى على أكثر من عرضها لجزء بسيط مما يشكّل هيكله وبناء جسده .

ولما كان من ميزات العلامة قصورها عن استيعاب جميع ما يوفره الموضوع من مكوّنات ، كانت الحاجة ماسّة إلى إحالة متجدّدة تبحث استيفاء كلّ عناصر الموضوع واستدعاء بقيّة أجزائه التي تسرّبت عن الإحالة السّابقة ، تلك الإحالة المتجدّدة هي بمثابة تشكيل جديد للواقعة يدفع إلى قراءتها وتأويلها.

والضّرورة تقتضي ، على هذا الأساس ، التفريق بين موضوعين للعلامة ؛ ما تحيل إليه العلامة بشكل صريح مباشر يكتفي بإنتاج الدلالة (تقديم معلومات أولية خاصة بموضوع ما) اعتمادا على معطيات مباشرة ذات طبيعة تقريرية هي ما يشكل الوجود الأصلي للعلامة (الموضوع المباشر) ، وما توحي به العلامة من دلالات وقيم تدرج الفعل الإنساني ضمن وضع تداولي خاص ينضاف إلى التعيين الأولي البسيط لفعل التمثيل ذاته في سيرورة تأويلية شاملة منفتحة على كل الاحتمالات الممكنة قد لا تنتهي عند حد بعينه (الموضوع الديناميكي) . (13)

هذا يعني أنّ العلامة تكتنفها سيرورتان متقابلتان لكنّهما متكاملتان في الآن ذاته « سيرورة أولى متولّدة من القواعد الداخلية للغة . ومن هذه القواعد تأخذ اللغة معاييرها في الممارسة. و سيرورة ثانية متولّدة عن الشروط التاريخية الملموسة الراعية للممارسة الدّالة ، وهي التي تشكل - على المستوى اللساني - مجموع الإكراهات والمفارقات والمعايير الخاصة بهذه الممارسة » . (14)

وهذه الإحالة المزدوجة التي تسم العلامة هي ما يجعل من القراءة تنقيباً مستمرّاً عن الأشكال الدلالية الضّمنية المتخفّية وراء الدلالات التّقريرية المتحقّقة مباشرةً . وهذا ما نودّ التّوقف عنده وقفة متأنية في مداخلتنا هذه .

ذكرنا أن ما يمكن أن تُفضي إليه العلامة ، من خلال إدراكها لذاتها في بعدها التقريري الأولي ، هو إنتاجها لدلالة صريحة لا تتجاوز حدود تعيين تجربة تعكس حالة أولية للإدراك منفصلة عن أي سياق ترتبط به غير ارتباطها بعناصرها الدّاخلية ، وهذا ما يسميه بيرس بالمؤول المباشر (15)

فالمعنى في هذه الحالة يكتفي بإنتاج وحدات قيميّة من طبيعة تعيينية تحدده المادة الأولية المتمثّلة في " العلامة " ذاتها من خلال عناصرها التي تمثل الرّكائز الأساسية التي انبنت عليها مقولة السميوزيس ، السيرورة المنتجة للدلالات ، حينها يقوم الماثول بفعل الإحالة ، عبر المؤول ، إلى موضوع يقع خارجه إحالة نفعية صريحة مرتبط بتلبية حاجات حياتية أولية يتطلبها البقاء في الحياة ، تدرك من خلال لحظة الإحالة الأولى إدراكا لا يتجاوز حدود الإشارة إلى ما هو معطى وما يقتضيه فعل الإدراك المجسد في واقعة ما ولا يقتضي سوى حضور عناصر التجربة المشتركة.

إنّ هذا المستوى التّقريري الأوّلي من الدلالة لا يخص علامات النّظام اللساني التّواصلي فحسب ، بل يتّسع لكل ما يفيض به السلوك الإنساني من الظواهر الثّقافية الأخرى كالإيماءات والطقوس والمعتقدات واللّباس وما إليها ، وفي هذا المستوى يكتفي الفعل التدليلي برصد الدلالة التقريرية المباشرة فى الممارسة الإنسانية ، والمراد بالدلالة التّقريرية لسانياً « قدرة العلامة على الإحالة إلى نوع معيّن من الأشياء ، يشكل كلّ الملامح المعنوية التي تسمح بتسمية مرجع ما (فعل التسنين) والتعرف عليه (فك التسنين) ، بمعنى الوقوف على مجموع الوحدات ذات الطابع التعريفي الخالص » . (16)

وبهذا الشّكل فإن الدّلالة التّقريرية ، وبخاصة إذا تعلّق الأمر ب بالنسق الدّلالي لـ " اللّسان " كونه يمثّل أرقى الأنساق الدلالية الإبلاغية ، وجب أن يُنظر إليها باعتبارها ، من جهة ، معنى أساسيا داخل الحدث التّواصلي ، فالتواصل لا يمكنه أن يتحقق دون وجود نواة دلاليّة تقريرية ثابتة مباشرة ومشتركة يتوزعها عناصر المجموعة اللّغوية الواحدة ، وباعتبارها تشكل القاعدة المركزية والمنطلق لكل الدّلالات العرَضية الثانويّة المضافة التي تزاد للعلامة اللّسانية فتشكل ذاكرتها التاريخية لاحقا ، من جهة ثانية .

يفهم من ذلك أنه يستحيل الإقرار صراحة بوجود ظاهرةٍ تدلّ دلالةً واحدةً وحيدة ، فتصوّر مدلول نهائي كلّي وثابت منافٍ لطبيعة المعنى في ذاته ، ومن هذه الزّاوية وجب التّسليم بوجود مستوى دلالي آخر ينطلق من الدّلالة النّواة المشتركة إلى ضروبٍ من المعاني والمسارات التّأويلية الموصوفة بانغماسها وحفرها في أعماق الخصوصية لارتباطها بسياقٍ ثقافي تؤوَّل عبره و يمنحها كامل دلالاته .

فالانفصال ، على هذا ، بين المستويين ؛ مستوى الإحالة التّقريرية ومستوى الانفتاح التّأويلي غير ممكن ، فليس صحيحا تخيّل وجود فعل تأويلي مستقل لا يعترف باتّكائه إلى دلالة تقريرية سابقة خاصة بالمستوى الأوّلي (مستوى التسنين) تمثل الحد المعنوي الأدنى تضمن له سلامة هذه الحركة التدليلية و تضمن قدرتها على إنتاج الدلالات المتنوعة ، فالإحالة أي (سيرورة السميوزيس) كما يتصورها إيكو ، يجب أن تؤدي إلى إغناء نقطة الانطلاق لا إلى نفي أية صلة بها . إن النّشاط التأويلي فعل كلي يبدأ في الاشتغال انطلاقا من مدلول أولي لا يتجاوز حدود الاستجابة للبعد النفعي خلّفته الإحالة المباشرة التي بلورتها الممارسة الإنسانية منفتحاً على كونٍ من الإيحاءات والدلالات الإضافية التي تتجاوز الوظيفي والاستعمالي وما تقدّمه العلامة بطريقة مباشرة مكوّنة منبعاً للتوالد الدّلالي والمسيرات التأويلية اللامتناهية ، و« التأويل اللامتناهي ، عند بيرس ، حال ممكنة . » (17) وفي هذه الحالة تدخل الذات المؤولة (القارئ) كضرورة ملحة تقتضيها عملية إنتاج الدّلالات المتنوعة .

إن الوعي بهذا المستوى الدلالي الثاني الذي هو " التأويل " ، وخصوصاً في مجال السميائيات التأويلية المنبثقة من فكر بيرس الظاهراتي وتسنين أمبرتو إيكو ويوري لوتمان وغريماس السردي والثقافي ومن ورمزية كاسيرير وسميولوجيا بارث ، والإقرار بوجوده والنّظر إليه باعتبارها نشاطا معرفيا بالغ الأهمية والخصوصية ، هو بحق إدراك لأهميته في تجديد الوعي النقدي وإضاءة جوانب العمل الأدبي من أجل فهم أفضل للتراث الإنساني قديمه وحديثه ، من خلال إعادة النظر في طريقة التعاطي مع قضايا المعنى ورصد أبعاده وغاياته وسبل تداوله وتلقيه .

فهو آلية نقدية مرنة تقترب من مختلف تجليات السلوك الإنساني ، بدءاً بأبسط الانفعالات وانتهاء بأكبر الأنساق الإيديولوجية ، بوصفها خزاناً من الإمكانات الدّلالية ، في محاولة لفهمها فهماً يتجاوز حدود تعيين الدّلالة المباشرة للواقعة إلى الانخراط في البحث عن قيم دلالية منضوية في سياقات خاصّة تشكّل ما هو ثقافي . إنّه ، في الأخير ، حالة وعي فلسفي بإمكانه أن يتصرّف في الواقع باعتباره حالات رمزية ويستجلي أسراره ويعيد صياغته من جديد وفق صورٍ ثقافية واجتماعية ودينية قابلة للتحقّق من خلال امتلاك

المفاتيح الضرورية للتّأويل.
ولقد رأى أمبرطو إيكو أن عملية التأويل لا يمكنها أن تتم إلاّ بحسب واحدةٍ من الوضعِيَتيْن التّاليتيْن ؛ وضعية ترى في السيرورة التأويلية (السيميوزيس) فعلا حرًّا لا يخضع لأية مرجعية (18) بحيث تدخل فيها التّجربة القرائية مرحلة انفلات دلالي غير آبهة بأية ضوابط أوحدود ، « فمن حق العلامة أن تحدد قراءتها حتى ولو ضاعت اللحظة التي أنتجت ضمنها إلى الأبد ، أو جهل ما يود الكاتب قوله » (19)
وفي هذه الحالة فإنّ التّأويل لا يهمه الوصول لأية نتيجة محددة من شأنها أن تفسر النصّ المقروء ، إنه مغامرة مفتوحة استُحضرت فيها كل التأويلات الممكنة حين انفصل النصّ عن لحظته التّلفّظية الأولى ، ولم يعد وقتها مستنداً سوى إلى مرجعية معرفية تفصل بين الدلالة المنبعثة من فعل العلامة كسيرورة تقدمها العلامة في إحالتها المباشرة ، وبين المعرفة التي تفيض بها المدلولات التي يقترحها فعل التأويل بلا ضابط ولا حدود . فما يتوفر لدينا حينها من المعرفة « بعد أن يستنفد الفعل التأويلي كلّ طاقاته ، لا علاقة له بالنقطة التي شكلت بداية التأويل ؛ فبإمكان أية علامة أن تحيل على أية علامة أخرى ، كما بإمكان أي شيء أن يشير إلى شيء آخر » ، كما يقول الدكتور سعيد بن كراد .
فالاستمتاع بالنّص ، مادام يمثّل توليفا لتسنين بالغ التّنوع والتّعقيد ، والاستلذاذ بقراءته يكون حينما تستمر مغامرته التّأويلية فلا تتوقّف عن الإحالات ، ولا تمتنِع عن البوح بكلّ المخفيات ، وبالضّبط حين لا تنتهي عند دلالة بعينها ، ويبقى النصّ وقتها ، وبحسب هذا المنطق ، أفقاً مفتوحاً لجميع التّأويلات على نحوٍ يجعل حدوده غير واضحة المعالم ، يستبعد كلّ محاولة تبحث تضييق مجاله الواسع ومحاصرته وبوتقته في ركنٍ تنتهي إليها كل الدّلالات والتّأويلات . (20)
وهذا مذهب كثيرٍ من الاتجاهات التأويلية المعاصرة تأتي في مقدّمتها التفكيكية التي تمنح المتلقي سلطات مطلقة لتصوّر الدّلالة ، تجعل من التأويل قراءة شعارها لانهائية الفكر وبالتالي التحرّر من كلّ الضّوابط ، فلا تعترف ، في رؤيتها التأويلية ، بأيّ دور للسياق ومقصدية النص والمؤلف ، غايتها الأساسية التّمتّع والتلذّذ بالسيرورة الإنتاجية وليس الوقوف فيها على دلالة بعينها ، حيث كل التأويلات والإحالات ممكنة حتى لو دفعت إلى

إنتاج مدلولات متناقضة بعيدة عمّا يفترضه المنطق ويستوجبه العقل .
ولقد أشار إيكو إلى أنّ هناك أصولاً قديمة تعتبر قاعدة ومنطلقاً لكثير من طروحات التأويل اللامنتهي كالفكر الذي تبنته المدرسة الهرمسية التي تقبل بمختلف التأويلات حتى أكثرها تناقضا ، بل إنّ الأمر ذهب بها أبعد من ذلك عندما أدارت ظهرها حتّى إلى أبسط مبادئ ومسلمات المنطق كمبدأ الهوية ، و مبدأ عدم التناقض فقوضتها وتجاوزتها ولم تبال بآثارها ، فتعاملت مع اللغة على أنّها شيء غامض ، وبقدر ما تكون كذلك بقدر ما تكون غنية بالمعاني والدلالات ، مما يفتح المجال واسعا أمام التأويل فينطلق دون رادع ولا ضابط ودون أن تحدّه حدود إلى مختلف التّخمينات حتى أقصاها إسرافاً فلا يتوقف عند دلالة بعينها ترسم نقطة التّوقف لمسير تدليلي طويل في النّهاية .
إن الاحتفاء المطلق بلا نهائية التأويل هو المذهب المميِّز للمدرسة الهرمسية ، فهي تعتبر النص عالما مشرعا وأفقا تتلاقى فيه كل المتناقضات إلى درجة تؤدي به في النّهاية إلى الاختفاء والذوبان هو في ذاته . (21)

إنّ هذا الاسراف الهرمسي في التّأويل يمكن اعتباره نوعا من التّوالد الإيحائي المتكاثر بطريقة سرطانية ، كما يقول إيكو ، فهو ينطلق من علامة محددة إلى أن ينتهي إلى علامة لا رابطة بينها البتة وبين التي مثّلت نقطة الانطلاق . ففي كل مرحلة لاحقة من التّأويل تنسى وتطمس العلامة السابقة ، فاللّذة كل اللّذة تكمن في الانفصال عن العلامة السابقة والانزلاق عنها إلى علامة جديدة . (22)

ضمن هذا السياق المعرفي وتوازيا مع المدرسة الهرمسية وفي نفس الفترة الزمنية تقريبا ظهرت مدرسة أخرى تتبنى نفس الطرح الباطني السابق ، هي المدرسة الغنوصيّة ، وبدورها حاولت أن تجيب على إشكالية التأويل من منطلق تعاملها مع النّصوص التي اعتبرتها فضاءات مفتوحة تقبل بأية قراءة مهما تطرّفت وتجاوزت الحدود ، أو هي آلة كسولة تقتضي من القارئ عملا مشاركا مجهداً لملء نسيج من الفضاءات البيضاء والفجوات والمسكوت عنه بتعبير أمبرتو إيكو (23) ، ونظرتها إلى اللغة نظرة قاصرة تعتبرها عاجزة عن الإمساك بأية دلالة ، ومسرحاً لكثير من المتناقضات والمتاهات والانزلاقات . (24)
تلك كانت الوضعية الأولى ، أمّا الوضعية الثانية ـ دائما بحسب تصوّر إيكو ـ فبالرّغم من

تسليمها المبدئي بأن السميوزيس لامتناهية في الزمان وفي المكان وبانفتاحها على مختلف التّأويلات وتعدّديتها بحكم طبيعة الفكر الإنساني ذاته ، إلاّ أنّ الحاجات الإنسانية تقلص من حجمها وتفرض عليها حدودا تجعلها ترتكن إلى مرجعيات وضوابط تحجّم من غلواء تجاوزاتها ونتوءاتها و انزلاقاتها المغرقة في الذاتية وانفلاتها خارج كل الغايات والمقاصد التي تمثل عامل تصفية وانتقاء من خلالها قد نرضى ونقبل بمسار تأويلي بعينه وندفع بالمسارات الأخرى إلى التراجع ، أو قد نرضى بها في واقعة خطابية مخصوصة وضمن شروط مخصوصة ونستبعدها في واقعة أخرى وضمن شروط أخرى ، وهذا يعني أنّ « التأويل ليس نتاج بنية الذهن البشري ، بقدر ما هو نتاج لواقعٍ تقيم دعائمه السميوزيس » . (25)

وبإمكاننا الآن ، ووفق هذا الطرح ، أن نقول بتناهي السيرورة التأويلية من حيث التجسيد الفعلي ، فهي في تحققها العملي فعل خاص محكوم باستراتيجية وبسياقات خاصة (26) وتلوينات ثقافية تسعى إلى الوقوف على الكيفيات والأشكال التي يتم بواسطتها بناء المعنى وتنظيمه في ثنايا وقائع ملموسة مشخَّصة تخرجه من تجريديته وزمانيته ومكانيته المطلقتين دافعة به إلى التداول في أفعال وسلوكات مخصوصة محددة في الزمان والمكان . (27) يقول إيكو : « فعالم السميوزيس عالم دائم التطور، وافتراض بنيات لهذا العالم لا يعني القول إنه عالم قار وثابت ، إن الأمر يتعلق فقط بالتعرف على الميكانيزمات البنيوية التي تحكم تحولاته .» (28)

فالنّص ، بهذا الحال ، ورغم احتماله لكثير من التّأويلات ، إلاّ أنّه يمتلك مجموعة من التّوجيهات الازمة تقود ، في ظل شروطٍ لسانيةٍ وتداوليةٍ محددةٍ بمرجعياتها وقوانينها الذاتية ، إلى قراءاته المسموح بها ، يقول إيكو : « إن التأويل ـ من هذا المنظور ـ ليس فعلا مطلقا بل هو رسم لخارطة تتحكم فيها الفرضيات الخاصة بالقراءة ، و هي فرضيات تسقط انطلاقا من معطيات النّص ... » (29)

وبناءً على ذلك ، وجب على القارئ أن يكون ملتزماً نصيّاً أو كما أراده إيكو أن يكون قارئاً نموذجيّاً ، بمعنى أن ينظر إلى النص انطلاقاً من تلك الموجّهات التي تضمن اللقاء بين مقصديته ومقصدية النص ، فالنص يرسم استراتيجيته الخاصة ، ومتلقيه هو الآخر يكون

مزوّداً باستراتيجية معينة يواجه بها شفرات النص ، وبهذه الكيفية يضمن للنّص تأويلاته المشروعة . (30) يقول راستيي : « إن المعنى ، حتى ولو تعلق الأمر بأبسط المستويات الدلالية ، هو نتاج عمليات تأويلية محكومة باستراتيجية » (31)

إن الممارسة التأويلية المنضبطة تحاول ، قدر الإمكان ، إرساء السيرورة التّدليلية وتثبيتها ضمن سياق بعينه يكون هو الهدف والغاية من سيرورة تأويلية بأكملها تنطلق من نقطة تُحدَّد خلالها معطيات بدْئية (مؤول مباشر) تولِّد زخماً من المعاني الكثيفة (مؤول ديناميكي) ، إلى توقّفها عند دلالة تستقر عليها هي المؤول النهائي (interpretant final) أو العادة ،كما سماها بيرس ، أوجدها ذلك السياق الخاص ذاته ، التي تتحول مع الزمن إلى مقياس وقانون يستمد منه الفعل المتحقق كينونته ، يقول بيرس : « إن السميوز في هروبها اللامتناهي من علامة إلى علامة ومن توسط إلى توسّط ، تتوقف لحظة انصهارها في العادة ، لحظتها تبدأ الحياة ويبدأ الفعل . » (32) بهذا الشّكل تكون الممارسة التأويلية قادرة على تحيين المضمون الفكري الناتج عن فعل الإدراك وصبّه في قالب تداولي تنتهي إليه كلّ التأويلات الممكنة .

إنّ ما كان يبدو أفقا لا متناهيا ولا محدودا من الإحالات في مسيرة السيميوزيس التّدليلية يتحول في لحظة ، من خلال المؤول النهائي ، إلى شكل نهائي تنتجه الممارسة الإنسانية وتضبطه بقوانين محدّدة تنظّم نوع الإحالة وتدرجها في منطق خاص على شكل سلوك عام يُحتَكم إليه وتُقاس عليه جميع النّسخ المتحققة . فالعلامة ، بهذا الشّكل وبجميع مكوّناتها الدّاخلية وسيرورتها التّدليلية ، لم تعد تتمتع بأي قيمة مطلقة بقدر ما أصبحتْ تتمتّع بسياق خاص يحدد لها شكلها الدّلالي الذي ستستقر عليه نهائياً وتشكل به إطاراً لكل سلوك فردي خاص . وتلك هي العادة التي تتطور انطلاقا من حالة فردية منعزلة إلى قاعدة عامة.

ولنا في التراث العربي وتحديدا فيما خلّفة عبد القاهر الجرجاني ما يمكن أن يشير إلى مفهوم توزّع العلامة ، في سيرورتها التّدليلية ، بين الإحالة التّقريرية من جهة ، والانفتاح التأويلي من جهة أخرى . ففي أثناء تصديه لقضية " المعنى " و " معنى المعنى " أشار إلى أن الكلام على ضربين : « ضربٌ أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ

وحده ، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة ، فقلت : خرج زيد ، وضربٌ آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذى يقتضيه موضوعه فى اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالةً ثانيةً تصل بها إلى الغرض ... وإذْ قد عرفت هذه الجملة ، فههنا عبارة مختصرة وهى أن تقول : " المعنى " ، و " معنى المعنى " ، تعنى بـ " المعنى " ؛ المفهوم من ظاهر اللفظ والذى تصل إليه بغير واسطة ، وبـ " معنى المعنى " ؛ أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضى بك ذلك المعنى إلى معنى آخــر . » (33)

فما يفهم من قول عبد القاهرأنّ الدلالة المدركة مباشرة من الواقعة دون الحاجة إلى ما يعضدها من خارجها تسمّى " المعنى " (الدلالة التقريرية) ، في حين تسمى الدلالات غير المدركة بشكل مباشر والتي تحتاج إلى واسطة " معنى المعنى " (الدّلالة التّأويلية / الإيحائية) ، وهي دلالات ثانية يُتوصّل إليها عن طريق الحفر في ذاكرة الواقعة الثقافية والتاريخية وإرغامها على البوح بكامل أسرارها .

وفي الأخير يمكننا القول إنّ العلامة لا يمكنها أن تتوقف عند إحالة واحدة تكون تعيينا لمعرفة معطاة بشكل نهائي (دلالة تقريرية مفردة ضمن كون من الإمكانات الأخرى الممكنة) ، بل هي سلسلة من الإحالات تسلم نفسها لحركية تأويل طويلة قد لا تنتهي نظريا عند نقطة دلالية بعينها (لا ناهئية السميوزيس المبررة لحركية العلامة والضامنة لاشتغالها) ، إلا أن المنطق السياقي التّداولي الخاص الذي تحيّن ضمنه وفق الحاجات الإنسانية النفعية يقود السميوزيس إلى التّوقف لحظتها لانتقاء دلالة نهائية والاحتفاء بها وتفضيلها على جميع الدلالات الأخرى (مؤوّل نهائي) .

الهوامـــش و المراجـــع

(1) كما يقول جريماص ، ينظر : العلامة ؛ تحليل المفهوم وتاريخه ، أمبرتو إيكو ، تر : سعيد بن كراد ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط1 ، 2007 ، ص : 203 .

(2) ينظر : Molino , Jean : Interpréter , in l'interprétation des textes , ed. Minui 1989 , p . 32 .

(3) Cassirer , Ernest : Essai sur l'homme , éd. Minuit , 1975 , p . 43 .

(4) ينظر: Cassirer , Ernest : Philosophie des formes symboliques , éd. Minuit , 1972 .

(5) التأويل بين السميائيات والتفكيكية ، ترجمة وتقديم : الدكتور سعيد بنكراد ، المركز الثقافي العربي ، الطبعـة الأولى 2000 ، ص : 148.

(6) ينظر .: Greimas , A. J. : Sémantique structurale , éd. Larousse , Paris ,1966 , p.5

(7) السـميائيات مفاهيمها وتطبيقاتهـا ، سعيد بنكراد ، منشورات الزمن ، مطبعة النجـاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 2003 ، ص : 18.

(8) Greimas , A. J. , Courtès , J. , signification .

(9) ينظر : السميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها ، سعيد بنكراد ، ص : 175.

(10) السـيميائيات أو نظريـة العلامات ، جيرار دولودال ، ترجمـة : عبد الرحمن بوعلي ، دار الحوار للنّشـر والتّوزيع، اللاذقية ، ط1 ، 2004 ، ص : 95 .

(11) السابـــــــــــق .

(12) Umberto , Eco : Lector in fibula , ed. Grasset , 1985 , p . 33 , 36 .

(13) ينظر : السميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها ، سعيد بنكراد ، ص : 175.

(14) Carontini , Enrico : Action du signe , p . 29.

(15) Peirce , C. S. : Ecrits sur le signe , p . 128 , 189 .

(16) - Kerbrat , Catherine : La connotation , éd. P U L , . Orecchioni 1977 , p . 12

(17) Umberto , Eco , les limites de l'interprétation : ed . p . 378 grasset , paris , 1990 ,

(18) ينظر : التأويل بين السميائيات والتفكيكية ، أمبيرتو إيكو ، ترجمة سعيد بنكراد ، المركز الثقافي العـربي ، 2000 ، ص : 132 .

(19) السابــــق .

(20) أمبرتو إيكو والتأويل اللانهائي ، الحسن المختار ، مجلة البيان ، الإمارات ، العدد 64 ، أبريل 2001 ، ص 64 .

(21) ينظر : السابـــــق ، ص : 65 .

(22) ينظر : . Umberto , Eco , les limites de l'interprétation : p . 373 ، وينظر كذلك :

رشـيد الإدريسي ؛ سـيمياء التأويل - الحريري بين العبارة والإشارة - شركة النشر والتوزيع ، الدار

البيضـاء ، الطبعة الأولى (2000) ، ص : 22- 23 .

(23) القارئ النموذجي ، أمبرتو إيكو ، ترجمة أحمد بوحسـن ، مجلة آفـاق ، اتحاد كتاب المغرب ، ع 7-8 ، 1988 ، ص : 140.

(24) ينظر : أمبرتو إيكو والتأويل اللانهائي ، الحسن المختار ؛ مرجع سابق ، ص : 66 .

(25) Umberto , Eco : les limites de l'interprétation , p . 382.

(26) ينظر : السميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها ، سعيد بنكراد ، مرجع سابق ، ص : 157.

(27) ينظر : شخصيات النص السردي - البناء الثقافي - ، سعيد بنكراد ، منشورات كلية الآداب والعلـوم الإنسانية ، مكناس ، 1999 ، ص : 67.

(28) Umberto , Eco : Le signe , ed . Labor , 1984 , p . 133 .

(29) التأويل بين السميائيات والتفكيكية ، أمبرتو إيكـو ، ترجمة وتقديم : سعيد بنكراد ، المركز الثقافي العربي الطبعة الأولى ، 2000 ، ص : 11 .

(30) القارئ النموذجي ، أمبرتو إيكو: مرجع سابق ، ص : 141-142 .

(31) Rastier , F : Sémantique interprétative , éd P U F , Paris , 1987 , p 12 .

(32) ينظر : Umberto , Eco : Lector in Fabula , p . 87-112 ، وينظـــــــر كذلك :

Everart-Desmedt , Nicole : Le processus interprétatif , introduction à la sémiotique de C. S. Peirce , ed. Mardaga , p . 42 .